المحاكمة بين الشيخية وخصومهم

بقلم : العلامة عبد الكريم رضا

ان فلاسفة الاسلام ومن تابعهم ثلاثة اصناف الصنف الاول هم الذين تظاهروا بآرائهم الفلسفية في تصانيفهم ورسائلهم ومناظراتهم ولم يخافوا لومة لائم ولا انتقاد منتقد كالفارابي وابن سينا وابن رشد والسهروردي المقتول صاحب حكمة الاشراق وغيرهم الصنف الثاني منهم هم الذين كتموا اسرار الفلسفة النظرية ولم يسطروها في الكتب والمصنفات ولا تظاهروا في تدريسها وكان هذا شأن اكثر فلاسفة الصوفية الذين تقدموا على محي الدين العربي كالجنيد وابي يزيد البسطامي وعبد القادر الكيلاني ولم يشذ عنهم الا افراد نادرة كالحلاج قال الغزالي في اوائل احياء العلوم مشيراً الى العلوم الفلسفية النظرية التي يسميها علوم المكاشفة (وهذه العلوم التي لا تسطر في الكتب ولا تحدث بها من أنعم الله عليه بشيء منها الا مع اهله وهو المشارك فيه على سبيل المذاكرة وبطريق الاسرار) .

الصنف الثالث منهم هم الذين سطروا آراءهم في الكتب ولكن بطريقة الرموز والتعمية والغموض والاخفاء وقد استعمل هؤلاء اصطلاحات خاصة بهم لا يعرفها إلا افراد نادرة من خواصهم على ان اصطلاحاتهم غير وافية بحل رموزهم مضافا الى غرابتها وعدم تداولها حتى عند اتباعهم وقد اتعب رجال هذا الصنف الثالث انفسهم ليطابقوا بين الدين والفلسفة وزعيم هذا الصنف محي الدين العربي وممن تابعه في سلوكه الشيخ احمد زين الدين الاحسائي الذي تنسب اليه طائفة الشيخية فاستعمل طريقة الرموز والاخفاء واخترع لنفسه اصطلاحات خاصة لبعض الكلمات وصار يطابق بين الفلسفة الاشراقية وبين الاحاديث والادعية والزيارات المنقولة عن اهل البيت [ع] ويستعمل كثيراً من الفاظ محي الدين العربي كالحقيقة المحمدية وغيرها.

ان السبب الباعث على كتمان الصنف الثاني واتخاذ الصنف الثالث شعار الرموز والغموض هو كونهم من رجال الدين الذين تقتدي بهم العامة ولهم منافسون من اهل الظاهر يشاطرونهم الرياسة على العوام ويتحينون الفرصة لتنفير العوام عنهم ليستقلوا بالرياسة مضافا الى ان هؤلاء الظاهريين خصوم للفلسفة من غير هوادة ولا رفق ويعتقدون انها مناقضة للدين وهادمة لاعظم اركانه فهذا الاعتقاد المضاف الى الحسد يفتح عليهم باب الطعن والايذاء اذا لم يتستروا بالكتمان او بالرموز .

كان الشيخ احمد زعيم الشيخية من عظماء علماء الحديث ومن اكابر الفقهاء وكان فيلسوفا على الطريقة الاشراقية وكانت له منزلة عظيمة عند الناس وعند الملوك حتى قال صاحب روضات الجنات « قام بمراسم عزائه بعد وفاته اكثر اهل الاسلام وقد جلس الكرباسي لعزائه ثلاثة ايام حضر مجلسه فيها الخاص والعام .

لم يكن الشيخ احمد في حياة السيد بحر العلوم ومن في طبقته كالشهرستاني وصاحب الرياض وصاحب كشف الغطاء معروفا بالفلسفة ولذا لم يتوجه اليه النقد من علماء الظاهر في ذلك العصر وبعد انقراض هذه الطبقة وانتقال التقليد اليه والى اقرانه من خلفاء تلك الطبقة ظهرت بعض كتبه التي تتضمن آراءه الفلسفية كشرح الزيارة الجامعة وانكشف لمنافسيه انه يدين بآراء الفلاسفة الاشراقيين المغالين في الانسان الكامل ويحاول ان يطابق بين الفلسفة وبين أحاديث اهل البيت (ع) وأدعيتهم وزياراتهم فانه وان كان يتستر بالرموز والغموض لكنه من حين لآخر تظهر آراؤه في شرح الزيارة الجامعة بصورة لاخفاء فيها وبعد ان اتضحت لهم آراؤه الفلسفية انتهزوا الفرصة للتشهير به واسقاطه عن مقامه الذي كاد ان يرتفع على مقاماتهم وكتبوا الى رؤساء البلدان واهل الحل والعقد يحذرونهم منه ويكشفون لهم عن فساد معتقداته فصار يتوقع حصول الشر في كل ساعة فاضطر الى الهجرة من العراق الى الحجاز وسار باهله وعياله . قال صاحب روضات الجنات وتوفي قبل أن يصل الى المدينة سنة ١٢٤٣ هجرية ولم يهاجر الى بلاد العجم لان له فيها خصوما ايضا حتى قال صاحب روضات الجنات ان ولده علياً كان من المنكرين عليه أشد الانكار .

كان الشيخ احمد يكثر من الطعن على الصوفية وعلى الفيض المولى محسن صهر صاحب الاسفار والقائم مقامه في نشر الفلسفة واذاعتها مع انه يكاد يكون مقلداً للفيض ولمحيي الدين العربي في اصول مقاصد الفلسفة الاشراقية وان اختلف معهم في بعض

فروعها وفي ابدال بعض المصطلحات وفي كثير من المسائل يكون الخلاف بينه وبينهم لفظياً ونعل طعنه فيهم ناشئاً عن التقية وحذراً من أن تنسب اليه مذاهبهم .

كان الفيلسوف النوري معاصراً للشيخ احمد ولا يراه من المتوغلين في الفلسفة وكذا معاصره الاخر المولى اسماعيل كان يرمي الشيخ احمد بأنه لا يفهم معاني كلمات الفلاسفة فان الشيخ احمد قد شرح العرشية التي هي من تصانيف صدى المتألهين صاحب الاسفار شرحا كله نقض وجرح وقد انتصر المولى اسماعيل لصاحب العرشية وكتب نقضاً على شرح الشيخ احمد ابان فيه عن قصور الشيخ احمد في الفلسفة وعدم فهمه لكلمات الفلاسفة وقد طبع قسم من كتاب المولى اسماعيل المذكور مع العرشية وطبع الباقي منه مع كتاب اسرار الآيات الذي هو من تصانيف صدر المتألهين ايضاً وتنقل عن الشيخ احمد بعض آراء سخيفة في الفلسفة كقوله باصالة الوجود والماهية معاً وحيث ان للرجل اصطلاحات خاصة به فلا ينبغي التسرع في انتقاد آرائه قبل بذل الجهد في تحصيل مراده .

ان الفلاسفة المتسترين بالكتمان أو بالرموز قد يكتبون لاتباعهم ومقلديهم رسائل في المعتقدات تطابق العقائد المعروفة عند اهل الظاهر ولا يمكن أن يكتشف أحد من هذه الرسائل آراءهم الفلسفية فما حكاه السيد الموسوي في مجلة البيان من عقائد الشيخ احمد والرشتي وكريم خان الموافقة لاهل الظاهر لا تكون دليلا على آرائهم الفلسفية وانما تعرف آراؤهم الفلسفية من كتبهم المبسوطة كشرح الزيارة الجامعة وشرح القصيدة والارشاد وقد كتب قبلهم الغزالي ومحي الدين العربي عقائد موافقة لاهل الظاهر وصرح الغزالي بأن آراءه الفلسفية هي الباطن لهذه العقائد الظاهرة حيث قال في الجزء الاول من احياء العلوم في كتاب قواعد العقائد بعد ان ذكر العقيدة الموافقة لاهل الظاهر ما ملخصه (ان هذه العقيدة تقدم للصبي في اول نشوه فان اشتغل بالمجاهدة تكشف له حقائق هذه العقيدة وبذلك يكشف له السر بل الاسرار درجات وادراك الاسرار التي يترجمها ظاهر الفاظ هذه العقيدة لا مفتاح له إلا المجاهدة والاقبال بالكلية على الفكر الصافي وانقسام هذه العلوم الى خفية وجلية انما يذكرها القاصرون فقد قال النبي [ص] ان للقرآن ظاهراً وباطنا وقال علي (ع) واشار الى صدره ان ههنا علوما جمة لو وجدت لها حمله وقال النبي [ص] نحن معاشر الانبياء امرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم وقال بعض العارفين الربوبية سر لو اظهر لبطلت النبوة والنبوة سر لو كشف لبطلت الاحكام) ثم قال ما ملخصه (ان كان الباطن مناقضاً للظاهر فهو كفر وهو قول من قال ان الحقيقة خلاف الشريعة وان كان لا يناقضه فهو هو ولا يكون للشرع سر لا يفشى) واجاب عن ذلك بما ملخصه ان هذه العقيدة الظاهرة قد تعبدنا بتلقيها بالقبول بعقد القلب عليها الا بان تنكشف لنا حقائقها فان الاسرار يختص بها المقربون ولا يشاركهم فيها الاكثرون ويمتنعون عن افشائها اليهم) ثم ذكر ان الاسرار خمسة اقسام .

وطال كلامه في بيان هذه الاقسام بما لا حاجة لنا الى نقله فان الغرض من نقل هذه النبذة القليلة من كلامه هو بيان ان ماذكره من العقيدة الموافقة لاهل الظاهر شيء وآراؤه الفلسفية شيء آخر ومحي الدين العربي صدر كتاب الفتوحات المكية ببيان عقيدة توافق علماء الظاهر مع ان ما في هذه العقيدة يباين ما في الفتوحات المكية من اسرار الفلسفة الاشراقية ولا يناسب ماقصده من معاني الحقيقة المحمدية ووحدة الوجود واسرار المعراج والنبوة والمعاد والولاية وغيرها فما نقله السيد الموسوي في مجلة البيان عن الشيخ احمد والرشتي والخان من العقائد المطابقة لآراء اهل الظاهر هي من قبيل العقيدة التي ذكرها الغزالي في احياء العلوم والعقيدة التي صدر بها محي الدين العربي كتاب الفتوحات المكية لا تكشف عن آرائهم الفلسفية التي من اجلها كافحهم وطاردهم خصومهم من علماء الظاهر .

اني لست ممن يقول بكفر الشيخية ولا ممن يعادونهم بل اني احترم الشيخ احمد الاحسائي كما احترم غيره من الحكماء المتألهين وان كنت ارى ان الكثير او الاكثر من آرائه وآرائهم غير مطابق للحقيقة خصوصاً ما يتعلق منها بالطبيعيات وبعلم الفلك ومع احترامي للشيخ احمد ارى ان كتبه التي يحاول ان يوفق بها بين الدين والفلسفة كشرح الزيارة الجامعة شر محض لا خير فيها ابداً فانها هي التي فرقت الطائفة واحدثت المصائب وسفك الدماء وهتك الاعراض في تبريز وغيرها واكثر هذه المصائب وقعت على المنسوبين اليه من الشيخية ولولا كتبه هذه لما كان لاحد مجال لتكفير الشيخية لان العامة منهم واهل الظاهر

يعتقدون ما يعتقده العامة واهل الظاهر من الاصوليين وفلاسفة الشيخية كالرشتي وكريم خان آراؤهم لا تفترق كثيراً عن آراء فلاسفة الاصوليين الذين يتابعون صاحب الاسفار ولا يزال اكثر الروضه خونية على المنابر يحدثون الناس بما ينقله صاحب البحار عن بصائر الدرجات ومناقب الديلمي ومناقب شاذان وكتاب سليم بن قيس والخرائج والجرائح. وتفسير فوات بن ابراهيم وتفسير العياشي وامثالها والناس يتلقون منهم ذلك بالقبول وليس عند عوام الشيخية واشباههم ممن على رؤسهم العمائم منهم عقيدة لا يعتمدون فيها على البحار او على مدينة المعاجز او على غاية المرام فلا فرق بين الطائفتين في المعتقدات فلماذا يكفرون الشيخية على هذه الاعتقادات التي يشاركونهم فيها واكثر اراء الشيخ احمد الفلسفية كتراثه في المعراج والمعاد والاسماء والصفات والعلم والمشيئة وغيرها لا يعرف عنها عوام الشيخية شيئاً كما لا علم بها لعوام الاصوليين .

والعجب من السيد مهدي البصري صاحب المصنفات التي يطعن فيها على الشيخية انه يكفر عموم الشيخية بكلمات ينقلها عن شرح الزيارة بزعمه انها توجب التكفير وليت شعري اذا كانت كلمات الشيخ احمد توجب التكفير فما ذنب الجماهير من العوام وأشباههم من الذين لا يفهمون من الدين غير ما يفهمه عوام الاصوليين والبحار وأمثالها مرجع الجميع في اعتقاداتهم في الأئمة (ع)

قد يتوهم بعض القاصرين ان تكفير عوام الشيخية من أجل موالاتهم وتقديمهم للشيخ أحمد وهذا وهم سخيف لان موالاة المنحرف عن الحق اذا كان الموالي له يعتقد انه من اولياء الله لا توجب الكفر باجماع المسلمين بل ان من يوالي المنحرف عن الحق اذا اعتقد فيه العدالة والنزاهة لابد ان يثاب على هذه الموالاة فقد نقل صاحب الرسائل في كتاب الامر بالمعروف عن الكليني في الكافي وعن الصدوق في كتاب الاخوان باسانيدهم عن الباقر (ع) انه قال [لو ان رجلا احب رجلا لله لاثابه الله على حبه اياه وان كان المحبوب في علم الله من اهل النار ولو ان رجلا ابغض رجلا لله لاثابه الله على بغضه وان كان المبغض في علم الله من أهل الجنة]

لم يبق في عصرنا الحاضر بين المسيحيين في اوربا وامريكا من علماء الدين من يعتقد وينكر طريقة التوفيق بين الدين والعلم وقد انتشرت هذه الفكرة انتشاراً عظيماً بين علماء الدين المسلمين في مصر والهند وتلقاها اكثرهم برحابة الصدر ولكن هذه الطريقة مع الاسف لم تنتشر الى الآن بين الشيعة في ايران والعراق ونحن نأمل انتشارها بينهم في القريب العاجل ويومئذ تكشف الاسرار وتهتك الاستار عن آراء الشيخ احمد الاحسائي وأمثاله ممن حاولوا ان يوفقوا بين الدين والفلسفة الاشراقية وستتضح اغلاط من اعتمد على هذه الفلسفة وتستبدل بكثير من آراء المتألهين من الفلاسفة المحدثين والمعاصرين ولا يبقى للشيخية وثوق بفلسفة شيخهم الاحسائي وسيدهم الرشتي واذا زال وثوقهم به فلا يكون لهم مانع من دراسة الفلسفات الاخرى كما لا يمنعهم مانع من تقليد سائر فقهاء الامامية في الاحكام الشرعية الفرعية وبذلك يزول الشقاق ويتم توحيد الكلمة وتأليف القلوب وما دام الشيخية مستمرين على المغالاة في الشيخ احمد والرشتي والخان ولم تتضح لهم اغلاطهم الكثيرة فلا يمكن ان يزول الخلاف بينهم وبين سائر الامامية .

الحلة

عبد الكريم رضا

الشعرة البيضاء

للاستاذ فؤاد باشا الخطيب

ياشيب ليت قتير الشيب لم يبن ... فكيف خنت وشرخ العمر لم يخن
لان خففت على الفودين محتشما ... فقد حففت شبابي انغض بالظنن
فكيف اخطأت سير الدهر محتشما ... والوعد بيني وبين الدهر لم يحن
فانظر الى الشعرة البيضاء ان لها ... معنى الهزيمة والتسليم للزمن
كأنها الراية البيضاء يرفعها ... في الحرب من لم يطق صبراً على المحن
كانت ليالي بيضاً وهي فاحمة ... سوداء فانسدلت خيطاً من الكفن
وانذرتني اقتراب الحين ضاحكة ... وقد قرعت بكفي الصدر من شجني
لون من الحسن عنه النفس معرضة ... وهل سمعت بحسن ليس بالحسن
ثلج على الرأس لم تترك برودته ... حرارة لك حتى من لظى الحزن

بيروت

فؤاد الخطيب